دَورُ الدَّولةِ في صَونِ الحُرِّيَّاتِ
وحمايةِ التَّنوُّعِ

كلمةٌ في الحرية والمواطنة

مصطفى الفقي(*)

فضيلةَ الإمامِ الأكبر، رئيسَ مجلسِ حكماءِ المسلمين.

يُسعدُني أنْ أُدلِيَ بدلوي هنا، في أنَّ الدياناتِ كلَّها، قامتْ على قاعدةٍ واحدةٍ، وهي قاعدةُ حريَّة اختيارِ الإنسانِ للأديانِ، الجبرُ ليسَ قضيَّةً إلزاميَّةً، إلا فيما يتَّصلُ بثوابتِ الدينِ، وقد ترك هامشًا للإنسانِ، يتحرَّكُ فيهِ، ويُحاسَبُ عليهِ، ويُثابُ بهِ، ولهذا السببِ فإنَّ احترامَ الإنسانِ لخياراتِ الغيرِ، هو أفضلُ ما يمكنُ أن يقدِّمَه نموذجًا للتحضُّرِ للحياةِ المتقدِّمةِ والمتنوِّعةِ.

ولقد شهدنا في السنواتِ الأخيرةِ، أنَّ المجتمعاتِ المعاصرةَ كافَّةً إذا كانَ فيها التنوُّعُ والتعدُّدُ كانتْ أقربَ إلى التقدُّمِ والرُّقيِّ، والتجارِبُ الآسيويَّةُ في سنغافورةَ وماليزيا وغيرِها، نتيجةَ تعدُّدِ الأقليَّاتِ بالمعنى العدديِّ وتعدُّدِ النوعيَّاتِ من البشرِ، أدَّى هذا إلى سبيكةٍ مختلفةٍ، جعلت هذه المجتمعاتِ أكثرَ تقدمًا من المجتمعاتِ الأخرى الَّتي عُرفت بأحاديَّةِ النوعِ؛ لأنَّ الحياةَ قامت على التنميطِ والتعدديَّةِ، ولم تقمْ أبدًا على العزلةِ والانطواءِ وإقصاءِ الآخرِ، فالحياةُ بطبيعتِها مفتوحةٌ لكلِّ مَنْ يعيشُ فيها، وتقبلُ الاتِّزانَ والحوارَ، وتَقبَلُ الرَّأْيَ الآخرَ.

ولعلَّ أكبرَ مشكلةٍ نتعرَّضُ لها في العالمينِ العربيِّ والإسلاميِّ، ونشعرُ بها جميعًا هي رفضُ كلٍّ منَّا لخياراتِ الآخرِ، كأنَّما يتصوَّرُ الواحدُ منَّا أنَّه أُوتيَ الحكمةَ واحتكرَ المعرفةَ، وهذا أمرٌ يدعو إلى التأمُّلِ والدراسةِ.

إنَّ لدينا مقولتينِ إحداهُما في الحضارةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ، وهي الَّتي أشارَ إليها الدكتور زقزوق الآنَ، الخاصَّة بالإمامِ الشافعيِّ رضي اللهُ عنه، والثانيةُ في الحضارةِ المسيحيَّةِ وهي مقولةُ فولتير بنفس المعنى.

وبهذا نجدُ أنَّ الحضاراتِ الَّتي ارتبطت بأديانٍ مختلفةٍ التقتْ في النهايةِ برابطٍ مشتركٍ في ضرورةِ احترامِ الغيرِ والدفاعِ عنهُ، حتَّى لو اختلفنا معهُ، هذا التعدُّدُ والتنوُّعُ هو ما قامت عليه الحضاراتُ؛ ولذلك نجدُ في المنطقِ التجاريِّ «إذا اتفقتِ الأذواقُ بارتِ السِّلَعُ».

وأيضًا إنَّ اللهَ قادرٌ على أن يجعلَ الناسَ أمَّةً واحدةً، وأن يخلقنا جميعًا على دينٍ واحدٍ، ولكنَّه أرادَ أَنْ يجعلَ التَّعدُّدَ مِفتاحًا لاستمرارِ الحياةِ، ومسوِّغًا للبقاءِ الدائمِ، ولهذا فإنَّنا يجبُ أَنْ نُدركَ أنَّ احترامَ خياراتِ الآخرِ هو أمرٌ يجبُ أن نعتزَّ به دائمًا وندافعَ عنه، ونحرصَ عليهِ.

عندما نتحدَّثُ هنا في بلادِنا مصرَ، على سبيلِ المثالِ، عن مبدأِ المواطنةِ، وضرورةِ احترامِ الآخرِ، وتَعني المواطنةُ أنَّ الجميعَ سواءٌ، باختلافاتِهم المقبولةِ، المسلِمَ والمسيحيَّ، الغنيَّ والفقيرَ، والرجلَ والمرأةَ، وهذه المواطنةُ تُعلي من شأنِ الإنسانِ، وتضعُه في إطارِ منظومةٍ واحدةٍ لا يُمكنُ أن يجدَ فيها عِوَجًا ولا انحرافًا.

إنَّ أسوأَ ما نُعاني منه -وهو الأساسُ في بذرةِ الإرهابِ الحقيقيِّ في المنطقةِ- هو الإحساسُ باحتكارِ الفكرةِ، والعزلةُ والهجرةُ الزمنيَّةُ من عصرِنا لعصورٍ سابقةٍ، وانتزاعُ الإنسانِ من المحيطِ الَّذي يعيشُ فيه إلى المحيطِ الذي يَبعُدُ عنه في تاريخِه وظروفِه وأحداثِه، فمن لم يهاجرْ مكانًا هاجرَ زمانًا.

وبالتَّالي بدأنا نبحثُ عن المهجورِ وغيرِ المؤكَّدِ في الشرائعِ المختلفةِ، نبحثُ عن أسبابِ الاختلافِ، بينما يجبُ أَنْ نبحثَ عن أسبابِ التوافقِ والوِفاقِ، ليس هناكَ ما يدعو أبدًا إلى أن نَشعُرَ أَنَّ اختلافَ الدياناتِ -وهي كلُّها رسالاتٌ من اللهِ- لا يمكنُ أن نعتبرَ أنَّ هذا الاختلافَ سببُ خلافٍ سياسيٍّ أو في صراعٍ حياتيٍّ أو صدامٍ دمويٍّ مِثلَما يحدثُ الآنَ، لا يمكنُ أن نتصوَّرَ أن يُقدِمَ مسلمٌ يعرفُ دينَه وحقيقتَه على ذبحِ النصارى من أبناءِ الوطنِ، مِثلَما حدثَ في سيناءَ منذُ أيامٍ، ألا تشعرونَ أنَّنا أمامَ خطرٍ مُحدِقٍ، يكادُ يُطيحُ بالثوابِ في دينِنا العظيمِ.

لهذا ينتفضُ الأزهرُ بينَ الحينِ والحينِ بشيخِه الجليلِ، وأئمَّتِه العظامِ؛ يدافعونَ عن الحقِّ والحقيقةِ، وينغمسونَ في واقعِ الأحداثِ، ولا يبتعدونَ عنها؛ لأنَّهم يدركونَ أهميَّةَ هذا المركزِ الإسلاميِّ الكبيرِ والمؤثرِ في التاريخِ الحضاريِّ لهذه المنطقةِ، ويدركونَ أنَّ عليهم مسئوليَّةً في التنويرِ والتوعيةِ.

إنَّني أتذكَّرُ أنَّ إنشاءَ بيتِ العائلةِ المصريَّةِ على يدِ الإمامِ الأكبرِ، كانَ نتيجةَ عدوانٍ على كنيسةٍ في العراقِ، وهكذا فإنَّ وَحدةَ العالَمِ الإسلاميِّ، ووَحدةَ المنطقةِ ككلٍّ

بدياناتِها المتعددةِ تفرضُ على الجميعِ ضرورةَ التَّماسكِ والالتزامِ بالفكرةِ الموحَّدةِ والرؤية المشتركةِ.

إنني أشعرُ بقلقٍ شديدٍ حين أرى عملياتِ الإقصاءِ والاستبعادِ والقتلِ على الهُوِيَّةِ والعدوانَ على النفسِ البشريَّةِ في مناطقَ متعددةٍ من عالَمِنا الإسلاميِّ والعربيِّ.

وأدعو اللهَّ مخلصًا أن يوفِّقَ الأزهرَ وكلَّ المؤسساتِ الإسلاميَّةِ -ومعها بالضرورةِ كل المؤسساتِ المسيحيَّةِ- وَلنتذكَّر دائمًا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قد خالطَ أهلَ الكتابِ، وأكلَ من طعامِهم، وتبادلَ التجارةَ معهم، ولهذا فإنَّ ما نراهُ الآنَ من تشدُّدٍ وتعصُّبٍ وغلوٍّ وجهالةٍ هي أمورٌ بعيدةٌ عن رُوحِ النبيِّ وسماحةِ الإسلامِ العظيمِ.

إنَّني دارسٌ للمسيحيَّةِ، حيثُ حَصَلتُ على درجة الدكتوراه من جامعةِ لندن عن الأقباطِ في السياسةِ المصريَّةِ، أشعرُ أنَّ نقاطَ الاتفاقِ أكبرُ بكثيرٍ من نقاطِ الاختلافِ على جميعِ المستوياتِ السياسيَّةِ والثقافيَّةِ والحياتيَّةِ، ولا يوجدُ أبدًا مُسوِّغٌ للخلافِ إلا التعنُّتُ والتطرُّفُ والجهلُ، ورفضُ خياراتِ الآخرِ، والإحساسُ المبالَغُ فيه بالذاتِ على حسابِ الغيرِ.

وإنَّني أستلهمُ من هذا اللقاءِ الناجحِ والَّذي أدعو لمزيدٍ من تكرارِه، لأنَّنا كلَّما رأينا شيخَنا الجليلَ، ومعه علماءُ الإسلامِ ورجالُ الدينِ المسيحيِّ الأحبارُ، نشعرُ أنَّنا بخيرٍ، وأنَّنا ندركُ أنَّنا فوقَ الفتنةِ، وأنَّنا قادرينَ على وَأدِها، وأنَّنا نُطبِّقُ صحيحَ دياناتِنا، الَّتي دعتْ إلى المحبةِ والأخوةِ والتسامحِ، من الآنَ إلى أن تقومَ الساعةُ.

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.